أثر اللسانيات في مفهوم الشعرية

(رومان جاكبسون أنموذجًا)

أ. رابعة محمد شاكر أبو سنينة (*)

د. نبيل محمد هشام عبد الشكور حريز(**)

مقدِّمة:

تَدرُسُ اللِّسانيّاتُ أو اللُّغَويّاتُ أو عِلمُ اللُّغة، اللُّغاتِ الإنسانيّةَ خصائصَها وتراكيبَها، دراسةً علميّةً وصفيّة. وأهمُّ سِمَةٍ تَسِمُها أنّها تَصِفُ اللّغةَ وصفًا داخليًّا تجريبيًّا بمعزلٍ عن المؤثِّراتِ أو المقارباتِ الخارجيّة - رغمَ أهميتها - فضلًا عن تحليلها جوانبَ اللّغةِ جميعَها كالجانب الأدبيّ والاجتماعيّ والنفسي والبنيويّ، تحليلًا منهجِيًّا موضوعيًّا شاملًا دقيقًا.

وقد رَسَتِ اللسانياتُ مجالًا معرفيًّا ضخمًا ذا أثرٍ كبيرٍ في مجالاتٍ عديدة، ومنها مجالُ الأدب والشِّعر، بما فتحَتْه من آفاقٍ في التّحليل الصّوتيّ والصّرفيّ والنّحويّ والتركيبيّ؛ فانبَجَسَتِ (الشِّعرية) حقلَ دراسةٍ عن اللسانيات، يهتمّ برصدِ وتفحُّصِ العناصر الأدبية في اللغة وقوانين العمل الأدبيّ التي تَمِيزُه عن اللّغة الاعتياديّة. وقد ظهرَ ذلك الأثرُ - أكثرَ ما ظهرَ - في مدرسةِ الشّكلانيّينَ الرّوس المتّصلةِ بـ(رومان جاكبسون) وشعريّتِه.

ولذلك، انعقدَ هذا البحثُ لدراسةِ أثر اللّسانيّات في مفهوم الشّعريّة وفي أعمال رومان جاكبسون على المستويْنِ النظريّ والتّطبيقيّ، وذلك في تمهيدٍ ومبحثيْن:

(*) باحث دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، المملكة الأردنية الهاشمية.

(**) دكتوراه اللغة والنحو، محاضر متفرغ، كلية عجلون الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، المملكة الأردنية الهاشمية.

عــرَّجَ التمهيــدُ على مفهــومِ اللّــسانيّاتِ ونــشأتِها ودورِ دي سوســير في إرســاء مفاهيمها، والمراحلِ الثلاثِ التي مرّتْ بها قبل استوائها علمًـا وصـفيًّا موضـوعيًّا وهي: النحو والمنطق، وفقه اللغة، وعلم اللغة المقارن، كما عرَّج على ثنائيات ديـسوسير الـتي تؤخذ بعين الاعتبار في الدراسة الوصفية للغة وهي: اللسان واللغة، والـكلام واللـسان، والدالّ والمدلول، والتزامن والتواتر، والترتيب والاستبدال.

أما المبحث الأول فتحدّث عن أثر اللّسانيّات في دراسات الشعريّة: فبـدأ ببيـان مفهوم الشعرية قديمًا عند أرسطو ثمّ عند ثلاثـةٍ مـن أشـهرِ البـاحثين المعـاصرين في الشعرية وهم: تزفيتان تودورف، وجان كوهين، ورومان جاكبسون. ثمّ تطرَّق لمحـورَين يتّصلان بأثر اللّسانيّات في مفهوم الشّعريّة: الأوّل يتعلّق بنهـضة اللـسانيات البنيويّـة وأثرها في تعزيز المنهج البنيـويّ وسـحبه على الأدب، والثـاني يتعلّـق بـأثر الـشكلانيّين الرّوس في ربط المعطيات اللّسانيّة بتحليل النّصوص الأدبيّة.

وأما المبحث الثاني فعـن الأثـر اللّـسانيّ في شـعريّة جاكبـسون، وفيـه سـتُتناول ملامح تطبيق اللّسانيّات في شعريّة جاكبسون بالوقوف على محاور: أوّلها يمرّ على الوعي النّظـريّ لدى جاكبـسون في علاقـة اللّـسانيّات بالـشّعرية، وثانيهـا يتنـاول نظريّـة جاكبسون في الاتّصال والوظيفة الشّعريّة، وثالثها يتناول نظريتـه في العنـصر المهـيمن لتحديد الوظيفة الشعرية.

وفي آخر المطاف، سيمرّ البحثُ على نموذجٍ في دراسات الشعرية عنـد جاكبـسون ظهر فيه الأثرُ اللّسانيّ، وهو تحليلـه للّازمـةِ (أبـدًا Nevermore) في قـصيدةِ الغـراب لأدغار ألن بو.

وبناءً على ما سبق، يمكن القول إنّ السّؤال الرئيس الذي يسعى البحثُ للإجابـة عنه هو: كيف أثّرتْ بنيويّةُ دي سوسير اللّـسانيّةُ - إنْ جـاز التّعبـير - على الدّراسـات الشعريّة لاحقًا فرومان جاكبسون؟

أمّا الدراسات السابقة ذات الصلة بهذا الموضوع، فمن أبرزها:

- كتابٌ بعنوان (التواصلُ اللّسانيُّ والشعريّة: مقاربةٌ تحليليةٌ لنظريةِ رومان جاكبسون) للطاهر بن حسين بو مزبر، الدار العربية للعلوم، بيروت، 2007. عَرَضَ فيه أفكار جاكبسون اللسانية وأوجز عن وظائف الكلام تاريخيًّا، فضلًا عن عوامل التواصل اللغويّ منطلقًا منها نحو وظائف اللغة. وبنىٰ فصله الأول علىٰ سؤال: كيف توجّه جاكبسون إلىٰ «الشعريات» ووضع نظرية التواصل؟ وفي فصله الثاني تحدّث عن نظريّة التواصل عند سوسير وبوهلر، وعناصر دارة الكلام عند كليهما، وفي فصله الثالث عن عوامل التواصل اللغوي عند رومان جاكبسون، أمّا الفصل الرابع فعن الوظائف اللغوية عند رومان جاكبسون: التعبيرية والإفهامية والانتباهية والمرجعية والشعرية ووظيفة ما وراء اللغة.

- بحثٌ بعنوان (الشّعرية: مفاهيمُ نظريّةٌ ونماذجُ تطبيقيّة) لِسِهام طالب، منشورٌ في مجلّة (أوراقٌ ثقافيّة مجلّة الآداب والعلوم الإنسانية)- بيروت، السنة الثانية، ع (7)، ربيع 2020م؛ تحدّث عن مفاهيم الشعرية لغةً في المعاجم العربية، واصطلاحًا من حيث ترجماتها العربية المتعددة وتعقيداتها وتداخلها بمصطلحاتٍ أخرىٰ كالأسلوبية وعلم السرد، وموقعها في التراث النقدي العربي، وأنواعها كالشعريّة الإيقاعيّة والبلاغيّة والتركيبيّة وشعريّة الخطاب وشعريّة الأسلوب، ومفهومها عند أشهر النقاد الغرب: تودوروف، وجاكبسون - بإسهابٍ مفيد -، وجون كوهين، ومفهومها عند أشهر النقاد العرب المحدثين: كمال أبو ديب وأدونيس. ثمّ عرضَ البحثُ نماذج تطبيقية شعريّة شاعريّة لشعراءَ في قصائدهم جماليّةٌ مميّزة: سميح القاسم ومحمود درويش وأحمد مطر.

*

تمهيد

مفهوم اللّسانيّات ونشأتها وإرث دي سوسير في إرساء مفاهيمها

يكاد الباحثون يتّفقون على أنّ اللسانيات بما تحملُه اليومَ مِن حمولةٍ معرفيّةٍ ضخمة، إنّما يعودُ تأسيسُها وإرساءُ مفاهيمِها الأولى إلى العالِم اللغويِّ السّويسريِّ فرديناند دي سوسير (1857-1913م) الذي استطاع كتابُه ذو العنوان (محاضراتٌ في علم اللسان العام)[1] أنْ يؤسِّسَ للّسانيات الحديثة بصفتِها علمًا مستقلًّا بوصف اللغةِ نفسِها بعيدًا عن أيّ مقارباتٍ خارجيّةٍ كما هو الحال قبله[2].

ومنذُ أن وضَعَ دي سوسير أسسَ اللّسانيّات في العصر الحديث بوصفها علمًا مستقلًّا، دارت أقلامٌ كثيرةٌ في تعريف اللّسانيّات، وكان أشهرَها قلمُ دي سوسير نفسِه الذي عرّف اللّسانيّات بوقوفه على موضوعها فقال: «يتكون موضوع العلم أوّلًا من جميع مظاهر اللغة الإنسانية وتعبيراتها، سواء منها لغة الشعوب البدائية أو الشعوب المتحضرة، وسواء تعلق الأمر بالعصور المغرقة في القدم (نقصد العصور الكلاسيكية) أو عصور عهد الانحطاط، آخذين بعين الاعتبار بالنسبة لكل مرحلة لا اللغة السليمة واللغة الممتازة فقط، بل جميع أصناف التعبير وأشكاله»[3].

---

(1) لهذا الكتاب ترجماتٌ متعدّدةٌ يختلف عنوانُها باختلافها؛ فهو بعنوان (محاضرات في علم اللسان العامّ) بترجمة عبد القادر قنيني، وفي ترجمةِ يوسف غازي ومجيد النصر بعنوان (محاضراتٌ في الألسنيّة العامة)، وفي ترجمة يوئيل عزيز (محاضرات في علم اللغة العام)، بينما تُرجم على يد خالد هويدي ونعمة الطائي بعنوان (محاضرات في اللسانيات). وسنعتمد على ترجمة قنيني في هذا البحث. انظر: المجذوب، عز الدين، ثلاث ترجمات لكتاب دي سوسير، ص43.

(2) انظر عن دور دي سوسير في تأسيس علم اللسانيات:
- روبنز، ر.ه، موجز في تاريخ علم اللغة، ص287.
- جان إيف، تاديه، اللسانيات والأدب، ص252.
- مانيس، دانييل، علم اللغة، ص212.

(3) سوسير، دي، محاضرات في علم اللسان العام، ص14.

ولم تخرُج تعريفات اللّسانيّات عمّا أرساه دي سوسير؛ فهذا مُعْجَمُ اللسانيّات الموحّدُ يعرّف كلمة (لسانيّات) بأنّها: «دراسةٌ علميّةٌ للُّغة، يُقِرّ كلّ باحث، بشكلٍ عامّ، بأنّها ظهرت معَ نشر كتاب دي سوسير (دروس في اللسانيات العامة) سنة 1916، وتتوق هذه الدّراسة العلمية إلى النظر في اللغة لذاتها دون اعتبارات خارجية عنها، وذلك باستعمال طرقٍ تجريبيةٍ ذات بُعدٍ وصفيٍّ أفضى إلى ظهور مدارسَ تابعةٍ أو مخالفة»[1].

اللّسانيّات قبل دي سوسير:

قَبْلَ أن نتحدّث عن لسانيات دي سوسير، يجدُرُ أنْ نمرَّ معَهُ على موضوع العلم قبلَه كما مهّدَ له في المحاضرة الأولى من محاضراتها، وعنوانها (نظرةٌ موجزةٌ على تاريخ اللسان)، فقد رأى دي سوسير أنّ اللّسانيّات مرّتْ بثلاث مراحل متتابعة قبل أن تستويَ على يديه علمًا وصفيًّا؛ تمحورت الأولى حين كانت اللسانيات مرتبطةً بعلم النّحو فاكتسبت صبغةَ المنطق والمعياريّة، أمّا المرحلة الثانية فتمثّلت في ارتباط اللسانيات بفقه اللغة الذي جَعَلَ الدّراساتِ اللّسانيةَ شديدةَ الالتصاق بالدّراسات التّاريخية والنّقديّة، وارتبطت المرحلة الثالثة مع ظهور علم اللغات المقارن بعد دراسة فرانز بوب (نَسَقُ التّصريف في اللغة السنسكريتية) التي درَسَ فيها العلاقات بين السنسكريتية والجرمانية والإغريقية واللّاتينية[2].

ورغم انتقاد دي سوسير تلكَ المراحلَ كلَّها، فقد كان لكلّ مرحلةٍ دورُها في تقريب اللسانيات إلى الوصف وإخراجها من حيِّزَي المعيارية والتاريخ، ولا سيما المرحلة

(1) المعجم الموحّد لمصطلحات اللسانيات (إنجليزي – فرنسي – عربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص87.

(2) انظر: سوسير، دي، محاضرات في علم اللسان العام، ص8-9.

الأخيرة التي استطاعت فيها دراساتُ اللّغات الرّومانيّة والجرمانيّة أن تركّز - بحُكْمِ توفُّر الوثائق - على الوصف أكثر من تركيزها على التّاريخ، وقد أشاد دي سوسير بدراسة فريدريك كرستيان ديز الموسومة بـ(نحو اللغات الرومانية 1836-1838) التي رأى أنها قرّبت اللسانيات من موضوعها الحقيقيّ؛ إلّا أنّ الانطلاقة التي يدين بها دي سوسير في إنشائه اللسانيات بوصفها علمًا مستقلًّا، كانت مع مدرسة النّحاة الجدد التي قام عليها لسانيّونَ ألمان؛ مثل بروجمان، واستوف، وبرون، وسيفرز، وبول، وهي مدرسةٌ قاربت بين إنتاج اللغة وإنتاج الفكر وردّوا الظّواهر اللغويّة إلى نظامها الطّبيعيّ، وقد تُوّجت أعمال هذه المدرسة بكتابِ العالم الأمريكيّ ويتني (حياة اللغة)[1].

ومع ذلك، لم تكن الخطوة التي خَطَتْها هذه المدرسة كافيةً في نظر دي سوسير لسبر أغوار اللسانيات والانطلاق بها علمًا ذا غايةٍ وعلاقاتٍ بعلومٍ مساعدة، فكان كتابُه بمنزلة التّتويج والانطلاقة لعلم اللسانيات الحديث كما يراه هو، وكما تلقّفه العلماء من بعده.

ثنائيّات دي سوسير:

يفتتح دي سوسير محاضرتَه الثّانية في اللسانيات بتحديدِ المهامِّ التي يضطلع بها علمُ اللسانيات، وهي ثلاث مهامّ: تتمثّل الأولى بالتأريخ والتّصنيف لجميع اللغات التي يُمكنُ التوصُّلُ إليها بغيةَ إعادة بناء اللغات الأصلية الأمّ لكلّ أسرةٍ لغويّةٍ قدر المستطاع. وتتمثل الثانية في البحث عن القوانين العامة التي يمكن أن تُردّ إليها جميع الظواهر الجزئيّة في اللغة. أما المهمة الثالثة فهي أن تعمل على تحديد نطاقها باستمرار لتصل إلى تعريفها الخاصّ؛ وإذ يدرك دي سوسير أنّ هذه المهامّ عصيّةُ

(1) انظر: سوسير، دي، مرجع سابق، ص13.

التّحقيق في حالِ استقلَّ علم اللسانيّات بذاته، فإنّه يحـدّد مجموعـةً مـن العلـوم الـتي ينبغي لعالِم اللّسانيات أن يستعينَ بها؛ مثـل الإتنوجرافيـا (وصـف الـشعوب ثقافيًّـا) وعلم النّفس وعلم الاجتماع وفقه اللغة والفسيولوجيا[1].

وقد شرع دي سوسير في بـسط نظريّتـه في اللـسانيّات عـبر إقامـة مجموعـةٍ مـن الثّنائيّات التي ينبغي أن يُركَّزَ عليها دائمًا في أيّ دراسةٍ وصفيّةٍ للّغة، وقـد تنـاولَ هـذه الثّنائيّات في متن محاضراته تناولًا مستفيضًا، وكان لها أثرٌ كبـيرٌ في الدّراسـة والتّطبيـق عند اللّسانيّين بعده. ونستطيع أن نلخّص هذه الثّنائيّات فيما يأتي:

1- **ثنائيّة اللسان واللغة**[2]: واللسان جزءٌ من اللغة ليس إلّا، ويعني به الإنتـاج المجتمعيّ الذي يحدث عن ملكة اللغة التي هي ملكةٌ عامّةٌ ومشتركَة ويصعبُ إدراجُها ضمن مجالٍ علميٍّ واحد؛ لأنها تنتجُ لاعتبارات فيزيائيّة وفسيولوجيّة وسيكولوجيّة، أمّـا اللسان فهو موضوع الدّراسـة عنـد دي سوسـير؛ إذ هـو «كلٌّ قـائمٌ بذاتـه، وهـو مبـدأ للتصنيف»[3].

2- **ثنائيّة الكلام واللّسان**: إذا كان اللّسان فرعًا اجتماعيًّا عامًّا عن اللغةِ التي هي مشترَكٌ إنسانيّ، فإنّ الكلام ينمازُ عن اللّسـان بـصفته الفرديّـة الـتي هي صـفةٌ ثانويّـةٌ تعني استخدام كلِّ فردٍ للّـسان بطريقتـه، وهـو (أي الـكلام) متعلّـقٌ بـالإرادة والذّكاء، وتظهر صفةُ الفرديّة في الكلام عن طريق ما سمّاه دي سوسير بـ(المزاوجات والتقاليب) التي يستطيع المتكلّم أن يستخدم وفقَها نسَق القواعد اللسانية الملزمـة لـكي يعـبّر عـن فكره[4].

---

(1) انظر: سوسير، دي، مرجع سابق، ==، ص14-15.
(2) في ترجماتٍ أخرىٰ: اللغة والكلام، واللسان والكلام، إلخ.
(3) انظر: سوسير، دي، مرجع سابق، ص20.
(4) نفسه، ص23.

3- **ثنائيّة الدّال والمدلول**: إنّ الكلام عند دي سوسير هو عمليّةٌ سيمولوجيّةٌ إشاريّةٌ تقوم على فكرة الدّالّ والمدلول؛ والدّالُّ عنده هو الصّورةُ الصّوتيّةُ المجرّدةُ للكلمة، أمّا المدلول فهو الصورة الذهنيّة التي يُحال إليها الذّهن عند التعرّض للدّالّ، وكلا العنصرين (الدّالّ والمدلول) عند دي سوسير منشأُهما ذهنيٌّ تصوّريّ؛ لذلك فلا علاقةَ منطقيّة تربط الدّالّ بالمدلول، فما هي إلّا محضُ اعتباط[1].

4- **ثنائيّة التّزامن والتّواتر**[2]: وفي هذه الثّنائيّة يرى دي سوسير أنّ اللغة يمكنُ أن تُدْرَسَ من حيثُ الزّمنُ تزامنيًّا أو تواتريًّا: أمّا التّزامن فيعني دراسةَ اللّغةِ دراسةً تُعنى بما هي عليه ضمن زمنٍ محدّدٍ بغرضِ توصيفها من حيثُ هي لا كما يرمي إليه المنهجُ التّواتريُّ الذي يدرس اللغةَ دراسةً تاريخيّةً متعقّبةً للظواهر اللّغويّة[3].

5- **ثنائية محور التّرتيب ومحور الاستبدال**: وفي هذه الثنائيّة يركّز دي سوسير على الذّاكرة الإنسانيّة أثناء استعمال المتكلّم للكلمات؛ فمحورُ الترتيب عنده هو تراتبُ الجملةِ ضمنَ سياقها النّحويّ والمعجميّ المألوف، وهذا المحور حاضرٌ في الكلام متمثّلٌ في البنى الصوتيّة له. أما محور الاستبدال فهو ما تحيلُ إليه الجملة من عناصرَ غائبةٍ تعتمد على الذّاكرة والرّبط؛ لذلك فقد وَصفَ المحورَ الاستبداليَّ بأنه «ذو تداعٍ ربطيّ»[4].

وفضلًا عن الثنائيّات التي أسّس عليها دو سوسير لسانيّاته، فإنّ كتابَهُ غنيٌّ بالمباحث التي أرسَتْ لعمل اللّسانيّين بعده وأسهمت في نهضة اللسانيّات بصفتها علمًا مستقلًّا بوصف اللغة وصفًا داخليًّا يبتعدُ بها عن المقاربات الخارجة عنها؛ فقد

---

(1) انظر: سوسير، دي، مرجع سابق، ص85-91.
(2) في ترجماتٍ أخرى: التّزامنية والتّعاقبية، أو التزامنية والتاريخية، إلخ.
(3) انظر: سوسير، دي، مرجع سابق، ص128-129.
(4) نفسه، ص156-161.

أفردَ في محاضراتِه مساحةً واسعةً جدًّا لدراسة الأصوات وجهاز النّطق عند الإنسان[1]، ومساحة أخرىٰ لدراسة النّحو وفروعه دراسةً وصفيّةً لا معياريّة، ركّز فيها علىٰ العلاقة بين النّحو والأصوات[2]، وكذلك تناول موضوع القياس والتطوّر في الاستعمال اللغويّ[3]، والاشتقاق[4]، هذا فضلًا عن دراساته لأثر العناصر الخارجية - من مثل الجغرافيا والمجتمع - في إرساءِ دراسةٍ وصفيةٍ للّغة[5].

*

(1) انظر: سوسير، دي، مرجع سابق، ص53، ص146، ص182.
(2) نفسه، ص171.
(3) نفسه، ص215.
(4) نفسه، ص223.
(5) نفسه، ص250، ص262.

المبحث الأوّل

أثر اللّسانيّات في دراسات الشعريّة

مفهوم الشّعريّة:

إنّ مفهوم (الشّعريّة) ضاربٌ في القِدَم على مستوى معالجة الآدابِ الإنسانيّة؛ إذ إنّ أرسطو نفسه قد استخدمَه وعالجَهُ ضمن نظرية المحاكاة التي وصّفَ فيها العناصرَ الأدبيّة في اللغة؛ من مثلِ الإيقاع والانسجام واللغة[1]، غير أنّ الشعريّة بوصفها مصطلحًا حديثًا باتت تشيرُ إلى الجهد المبذول في البحث عن القوانين العامّة التي يقوم عليها النصُّ الأدبيّ، على نحوٍ يمكن أن يُكشَف معَه عن مواضع (الأدبيّة) في النّصّ والعناصر التي تَجعل من عملٍ ما عملًا أدبيًّا وليس سوى ذلك[2].

ومن المفيد، قبل أن نرصدَ في هذا المبحث أثرَ اللّسانيّات في مفهوم الشّعريّة، أن نمرّ على تعريف الشّعريّة عند ثلاثةٍ من أشهرِ الباحثين المعاصرين في مجال الشّعريّة؛ وهم: تزفيتان تودورف، وجان كوهين، ورومان جاكبسون.

أما تودروف فيعرّفها بالقول: «الشّعرية بخلاف تأويل الأعمال الأدبية، لا تسعى إلى تسمية المعنى، بل إلى معرفة القوانين العامة التي تنظّم ولادةَ كلّ عمل، ولكنّها بخلاف هذه العلوم التي هي علم النّفس والاجتماع... تبحث عن هذه القوانين داخل الأدب نفسه، فالشعرية إذًا مقارَبَةٌ للأدبِ مجرّدَة وباطنيّة في الآن نفسه»[3].

ويتطرّق كوهين إلى أنّ مصطلح (شعريّة) أُخِذَ من الشّعر وسُحِبَ على الأدب وغيره من المجالات ضمن علاقةِ «النقل من السّبب إلى المُسبَّب»[4]، ثمّ يعرّفها بأنها

---

(1) أرسطو طاليس، فنّ الشعر، ص40.
(2) انظر: ناظم، حسن، مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمناهج والمفاهيم)، ص5.
(3) تودورف، تزفيتان، الشعرية، ص23.
(4) كوهين، جان، بنية اللغة الشعرية، ص10.

تلك التي «تبحث في الملامح المشتركة بين جميع الموضوعات الفنية أو الطبيعية التي من شأنها أن تثير الانفعال الشعريّ»[1].

أمّا جاكبسون فيعرّفها بالقول: «يُمكنُ تحديدُ الشّعريّة باعتبارها ذلك الفرع من اللّسانيات الذي يعالج الوظيفة الشعريّة في علاقتها مع الوظائف الأخرىٰ للُّغَة. وتهتمُّ الشعريّة بالمعنىٰ الواسع للكلمة بالوظيفة الشعرية، لا في الشعر فحسب؛ حيث تهيمن هذه الوظيفة علىٰ الوظائف الأخرىٰ للّغة، وإنما تهتمّ بها أيضًا خارج الشعر؛ حيث تُعطىٰ الأولوية لهذه الوظيفة أو تلك علىٰ حساب الوظيفة الشعريّة»[2].

إنّ التعريفات السّابقة لباحثينَ هم آباءٌ في الدّراسات الشّعريّة، تُوْصِلُنا إلىٰ المشترَك الأوّل بين اللّسانيّات ومفهوم الشّعريّة، ويمكن أن نعبّر عن هذا المشترك بـ(الوصفيّة)؛ فاللّسانيّات -كما سلف في التّمهيد- هي مجالٌ يروم البحث عن القوانين التي تنتظمُ اللغةُ وفقَها، وهكذا فإنّ الشّعريّة تتغيّا القوانين التي تشكّل لغة الأدب، وتفصلُ ما هو أدبيّ عمّا هو غير أدبيّ. وفيما يلي حديثٌ عن محورين يتّصلان بـ(أثر اللّسانيّات في مفهوم الشّعريّة):

المحور الأول: اللسانيات البنيويّة والشّعريّة:

يعرّف جان بياجيه البنيويّة بأنّها: «دراسةُ ظواهرَ مختلفةٍ كالمجتمعات والعقول والآداب والأساطير، فتنظرُ لكلِّ ظاهرةٍ من هذه الظواهر بوصفها نظامًا تامًّا، أو كلًّا مترابطًا، أي بوصفها بنية، فتدرسُها من حيثُ نسقُ ترابطِها الداخليّ لا من حيثُ تعاقبُها وتطوّرُها التاريخيان، كما تُعنىٰ أيضًا بدراسةِ الكيفيةِ التي تؤثّر بها بنىٰ هذه الكيانات علىٰ طريقة قيامها بوظائفها»[3].

---

(1) كوهين، جان، بنية اللغة الشعرية، ص10.

(2) جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص35.

(3) بياجيه، جان، البنيوية، ص7.

إلّا أنّ هذا التّعريف ينسحبُ على ما أفضت إليه البنيويّة في عصر صعودِها بوصفها منهجًا فكريًّا شموليًّا يُطبّق في ميادينَ مختلفة، والواقعُ أنّ نشأة البنيوية في أصلِها إنّما هي نشأةٌ لسانيّةٌ بَحْتَة؛ إذ يشير روبرت شولز إلى أنّ دي سوسير بعمله على دراسة اللغة دراسةً وصفيّةً داخليّة، قد أسهم في ظهور البنيوية بوصفها منهجًا يتّبع الطريقة نفسها[1].

ورغمَ أنّ دي سوسير نفسَه لم يُقدِّم نفسَه على أنّه بنيويٌّ بقدر ما كان عالمَ لسانيّات، فقد كان لدراساتِهِ اللغويّةِ أثرٌ كبيرٌ في نشأة ما يُسمّى بالبنيويّة اللّسانيّة. والبنيويّة - كما يقول تيري إيغلتون - «تُشير إلى منهجٍ في البحث يمكن تطبيقه على مجالٍ كاملٍ من الموضوعات، مِن مباريات كرة القدم، وحتى أساليب الإنتاج الاقتصادية»[2]. وهذا المنهج في البحث يشير جان بياجيه إلى أنّه «نموذج وضعتْه الألسنية في أوائل القرن العشرين»[3].

ومِمّا سَبَق، يتّضح أنّ نشأة اللسانيّات تبعَتها مباشرةً نشأةُ البنيويّة؛ وهي كما أسلفنا منهجٌ في الدّراسة بدأ في اللسانيات وانتقل منه إلى الحقول المختلفة ومنها الأدب، ومن ثَمّ فإنّ أيّ دراسةٍ بنيويّةٍ تركّز على ما يأتي:

- وصف الظواهر من الداخل بالتركيز على القوانين الدّاخليّة للظاهرة لا على ارتباطاتها وجذورها التّاريخيّة.

- العِلميّة في الوصف بالاعتماد على ما هو ملموس، والنأي عن التأويل والافتراض الذي لا تدعمه التّجربة.

- الاهتمام بالتبدّلات والتحوّلات التي تحدُثُ على البنية.

---

(1) تشولز، روبرت، البنيوية في الأدب، ص12.
(2) إيغلتون، تيري، نظرية الأدب، ص175.
(3) نفسه، ص7.

لكنّ السّؤال المطروح هنا: كيف أثّرت بنيويةُ دي سوسير اللّسانيّة -إذا صحّ التّعبير- على الدّراسات الشعريّة لاحقًا؟

رغم أنّ دي سوسير نفسَه لم يركّز في دراساته على الشّعر ولا حتّى على تحليل النّصوص الأدبيّة[1]، أسهمتْ نظريّته اللّسانيّة - بما فتحَه من آفاقٍ في التّحليل الصّوتي والصّرفي والنّحوي والتركيبيّ - في تعزيز الدّراسات الشّعريّة عند اللّسانيّين اللّاحقين، وقد تبدّى ذلك بنحوٍ أساسيٍّ في عمل مدرسة الشّكلانيّين الرّوس، ثمّ تتوَّجَ في عمل المدرسة البنيويّة الفرنسيّة. وسنركّز في هذا المبحث على مدرسة الشكلانيّين الرّوس بحكم اتّصالها بجاكبسون وشعريّته.

المحور الثاني: مدرسة الشّكلانيّين الروس والشعريّة (1915-1930م):

فضلًا عن أثر دي سوسير في نشأة المنهج البنيويّ في الدّراسات الأدبيّة، فإنّ هذا المنهج لم يكن ليَنضجَ ويَتعزّز لولا ظهورُ مدرسةِ الشّكلانيّينَ الرّوس التي صعدت في المدّة من 1915-1930م، وقد عمل روّادُ هذه المدرسةِ (مثل جاكبسون وإيخنباوم وشكلوفسكي وتيتاروف وغيرهم) على دراسة الأعمال الأدبيّة بالتّركيز على وصفها من الداخل بدون استدعاءِ أيِّ مؤثراتٍ خارجيّة، ويَنتُج عن هذا الوصف اكتشافُ الأنظمة التي تحكم النصّ[2].

وقد وُجِّهتْ لمَدرسةِ الشكلانيّين الروسِ انتقاداتٌ عديدةٌ لاهتمامهم بالشّكل وإهمالهم المضمون، إلّا أنّ جاكبسون دافع عن مدرسته وردَّ أعمالها بنحوٍ أساسيٍّ إلى المعطيات اللّسانيّة ضمن مقالته (اللسانياتُ والشعرية)، يقول: «»إنّنا لا ننادي، لا

---

(1) المتتبع لمحاضرات دي سوسير يجدها خاليةً من أيِّ تناولٍ للنّصوص الأدبيّة، وهذا طبيعيٌّ بحكم اهتمامه المحض بالتأسيس لعلمٍ يُعنى بالدراسات اللّسانية العامّة وتأسيس قواعد لما عُرف بـ(علم اللغة العام).

(2) انظر: إيخَنباوم، بوريس، نظرية المنهج الشكليّ، من كتاب: نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس)، ص36.

تيتاروف ولا مكاروفسكي ولا شلوفسكي ولا أنا، بأنَّ الفنَّ يكتفي بنفسه، إنّنا على العكس من ذلك، نبيّن أنّ الفنَّ لبنةٌ في الصرح الاجتماعي، ومكوّنٌ متعالقٌ مع المكونات الأخرى، مكوّنٌ متغيّرٌ لأنّ دائرةَ الفنِّ وعلاقتها بالقطاعات الأخرى للبنية الاجتماعية تتغيّران جدليًّا بدون انقطاع. إنّ ما نؤكد عليه ليس انعزاليةَ الفن وإنما نؤكّد على استقلالية الوظيفة الجمالية»[1]. وبناءً عليه، انصبَّ اهتمام الشكلانيّين الرّوس على دراسة الأعمال الأدبيّة بحثًا عن استقلاليّتها على مستوى الوظيفة، مستعينين باللغة بنحوٍ أساسيٍّ، التي تساعدهم في تحديد البنى التي يتكون منها العملُ الأدبيّ. وقد حدّد جاكبسون وظيفةَ هذه المدرسة بالإجابة عن سؤال: «ما الذي يَجعل من لغة الأدب لغةً مفارِقةً لغيرها؟»[2].

ويحدّد جميل حمداوي المهامّ التي اضطلع بها الشّكلانيّون الرّوس في: الاهتمام بخصوصية العمل الأدبي، ودراسة المضامين من ناحية الشكل، واستقلالية الأدب عن الحيثيات التاريخية والسياسية والاقتصادية الأخرى، والتركيز على دور الثقافة في إنتاج العلامات، والتّركيز على الاختلاف بين الشعر والنثر، والاهتمام بكل الأعمال اللغويّة[3]. ويَبرز أثرُ اللّسانيّات في عملِ الشكلانيّينَ الروس من خلال اهتمامهم البالغ بالأصوات والفونولوجيا والإيقاع والأوزان والتراكيب والتوازي ووظائف اللغة والقيمة المهيمنة وغيرها[4]. وكلّ هذه الاهتمامات ظهرت في أعمال جاكبسون ومنهجه الذي سنقف عليه في المبحث الثاني.

*

(1) جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص19.
(2) نفسه، ص24.
(3) انظر: حمداوي، جميل، النظرية الشكلانية في الأدب والفن، ص13.
(4) نفسه، ص10.

المبحث الثاني

الأثر اللّسانيّ في شعريّة جاكبسون

أسلفنا في المبحث الأوّل أنّ اللّسانيّات التي أرساها دي سوسير كان لها أثرٌ كبيرٌ في نشأة مدرسة الشّكلانيّين الرّوس ثمّ نشأة الدّراسات الشّعريّة الحديثة. وفي هذا المبحث سنتناول ملامح تطبيق اللّسانيّات في شعريّة جاكبسون بالوقوف على مَحاوِر: أوّلها يمرّ على الوعي النّظريّ لدى جاكبسون في علاقة اللّسانيّات بالشّعرية، وثانيها يتناول نظريّة جاكبسون في الاتّصال والوظيفة الشّعريّة، ثمّ يأتي محورٌ ثالث لتناول نظريته في العنصر المهيمن لتحديد الوظيفة الشعرية، وأخيرًا سنمرّ على نموذجٍ في دراسات الشعرية عند جاكبسون ظهر فيه الأثرُ اللّسانيّ، وهو تحليله للّازمةِ (أبدًا Nevermore) في قصيدة الغراب لأدغار ألن بو.

المحور الأول: الوعي النظريّ لدى جاكبسون في علاقة اللّسانيات بالشّعريّة:

يَظهر وعيُ جاكبسون النّظريُّ للعلاقة القائمة بين اللسانيات والشعريّة في مقاله (اللّسانيات والشعريّة)، وهو مقالٌ منشورٌ ضمن كتابه (قضايا الشعرية)، وقد كتبَه ليناقشَ فكرةً أساسيةً عبّر عنها بالقول: «إنّ الزّمن الذي كان فيه اللسانيّون ومؤرّخو الأدب معًا يتجنّبون قضايا البنية الشّعريّة هو زمنٌ قد ولّى لحُسن الحظّ، وفي الحقيقة – وكما يقول هولاندر–: يبدو أنّه لا وجود لأيِّ سببٍ لمحاولة فصل الأدب عن القضايا اللّسانيّة عمومًا»[1]. فالمقالُ إذن، هو رَدمٌ للمفهوم القديم الذي يَفترضُ عدم وجود علاقةٍ بين عمل اللّسانيّ وعمل المختصّ في الشعريّات.

ويفترضُ جاكبسون أنّ هدم العلاقة بين هذين العملين (أي عمل اللساني

(1) جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص61.

وعمل المختصّ في الشّعريّات) يجعلُه يشكّك في قدرة اللّسانيّ نفسِه على إقامة الرّبط بينهما، فيقول: «إذا كان هُناك نُقّادٌ ما زالوا يشكّكونَ في كفاءة اللسانيّات على أنّها تُمثّل مجال الشّعريّة، فإنّني شخصيًّا أُفكّر أنّ عدم كفاءة اللسانيّين ذوي الأُفق الضيّق في مجال الشعريّة لا يعني عدمَ كفاية العلم اللّسانيّ ذاته»[1]. ويجعلُ جاكبسون الشّعريّة معتمدةً على اللّسانيّات اعتمادًا أساسيًّا؛ فالعلاقة بين الشّعريّة واللّسانيّات وفقَه هي علاقةُ جزءٍ بكُلّ، يقول: «إنّ الشّعريّة تهتَمُّ بقضايا البِنية اللّسانيّة، تمامًا مثل ما يهتمّ الرّسم بالبِنْيات الرّسميّة، وبما أنّ اللّسانيّات هي العلم الشّامل للبنيات اللّسانية، فإنّه يُمكن اعتبار الشّعرية جزءًا لا يتجزّأ من اللّسانيات»[2]. فاللسانياتُ علمٌ شامل، والشعرية جزءٌ منها.

ثمّ يقيم الرّبط في علاقة الجزء بالكلّ بناءً على ما تستعينُ به الدّراسات الشّعريّة من الدّراسات اللّسانيّة، ويتمثّل ذلك فيما يأتي:

- **الاهتمام بالدّلالة**: كما أنّ اللسانيات تهتمّ بدلالة الكلمة أو ما يُصطلحُ عليه بالدالّ والمدلول، فإنّ الشعريّة وفق جاكبسون تهتمّ بدلالة الكلمة أيضًا، لكنْ لا يكون الاهتمامُ لغويًّا فقط، بل ينسحب على كلِّ ما له تعالقٌ بما سمّاه جاكبسون بنظريّة الدّلائل أو السيمولوجيا[3].

- **الاهتمام بطبيعة الخطاب**: تهتمّ الشعريّة بالخطاب وعناصره والعلاقات التي تربط بين طبيعة الخطاب نفسِه وفضائه الذي يَسبَح فيه، فـ«اللّسانيّات توشك أن تَكتشف كلَّ المشاكل التي تطرحها العلاقات بين الخطاب وعالم الخطاب»[4].

---

(1) جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص61.
(2) نفسه، ص24.
(3) نفسه.
(4) نفسه، ص25.

- **الاهتمام بالتّزامنيّة**: وهنا يَظهر أثرُ دي سوسير بوضوحٍ في مصطلحاتِ جاكبسون؛ إذ يرىٰ أنّ الشعريّة تهتمّ بالعمل الأدبيّ من ناحيته التزامنية لا التعاقبيّة، ومن ثَمّ فإنّه يؤّكد أنّ «الشّعرية التاريخية، تمامًا مثل تاريخ اللغة، إذا كانت تريد أن تكون متفتّحةً فإنّه ينبغي أن تُتصوَّر بوصفها بنيةً فوقيةً مؤسّسةً علىٰ سلسلةٍ من الأوصاف التّزامنيّة»[1].

- **التّركيز علىٰ العناصر البنيويّة**: يركّز جاكبسون علىٰ أنّ الشّعريّة تلتقط من اللّسانيّات اهتمامها بالبنية، ومن ثَمّ فلكلِّ نصٍّ أدبيٍّ بنيةٌ تسمُه وتميّزُه حتّىٰ لو كانت غائبة علىٰ مستوىٰ اللغة نفسها، ويطرح لذلك مثالًا يتمثّل في تحويل الإلياذة والأوديسا إلىٰ قصصٍ مصوّرة؛ ففي هذا المثال تختفي اللغةُ نفسُها التي كُتبتْ وصِيغتْ بها الإلياذةُ والأوديسا، ولا يعني هنا اللغةَ الأصليّةَ بقدرِ ما يعني اختفاء اللغة كليًّا والاعتماد علىٰ الرّسم والتّصوير، ورغم هذا الاختفاء فإنّ «العناصر البنيويّة تظلّ ثابتة»[2]، وهذه العناصر هي التي تهتمّ بها الشّعريّة حتىٰ لو كنّا نتعامل مع نصٍّ غيرِ لغويٍّ لكنّه مؤسّسٌ علىٰ بنًىٰ ثابتة.

- **الاهتمام بالفونولوجيا**: يكادُ التّحليل الصّوتيّ لبعض الأعمال الشعريّة في مقال جاكبسون يطغىٰ علىٰ كلّ ما سواه؛ ففي هذا المقال طرح نظريّته في الاتّصال - وسنمرّ عليها في المبحث التالي- واقترحَ فكرتَه بالبحث عن القيمة المهيمنة في النصّ لتحديد وظيفته[3]، لكنّه جعل من البحث الصوتيّ سبيلًا مهمًّا لتحديد الوظيفة الشعريّة في النصوص، بل وربط الأصوات بالمعاني ربطًا مباشرًا في مجال الشعريّة؛ يقول: «ليس الشّعر هو المجال الوحيد الذي تُخلِّف فيه رمزيّة الأصوات آثارَها، وإنّما

---

(1) جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص26.
(2) نفسه، ص24.
(3) نفسه، ص29.

هو المنطقة التي تتحوّل فيها العلاقة بين الصوت والمعنىٰ من علاقةٍ خفيّةٍ إلىٰ علاقةٍ جليّة، وتتمظهر بالطريقة الملموسة جدًّا والأكثر قوّة»[1].

ويَتْبَعُ الاهتمامَ بالفونولوجيا عند جاكبسون اهتمامُه بالوزن الشّعريّ[2]، وعلاقةِ الأوزان بالتراكيب[3]، والقوافي[4]، والتوازي[5].

المحور الثاني: نظريّة جاكبسون في الاتّصال والوظيفةِ الشعرية:

إنّ أهمّ ما ولّده الوعيُ النظريّ لدىٰ جاكبسون في علاقة اللّسانيّات بالشّعريّة هو طرحُه لنظريّة الاتّصال العامّة، ومن المهمّ أن نشيرَ إلىٰ أنّ وصولَه لهذه النظريّة جاءَ عبر محاولتِه الإجابة عن سؤال: «ما الذي يجعل من لغة الأدب لغةً مفارِقةً لغيرها؟»[6] في كتابه (قضايا الشعريّة).

أمّا نظريّة جاكبسون فتقومُ علىٰ أنّ لكلّ عمليّةِ اتّصالٍ لغويّ ستّة عناصر هي: المرسِل والرّسالة والمُرسَل إليه والسّياق وقناة الاتّصال والسّنن (القانون)[7]. لكنّ هذه العناصر الستّة يجري التّواصل بينها ليحقّق ستّ وظائف هي: الوظيفة التّعبيريّة والوظيفة الشّعريّة والوظيفة التأثيريّة والوظيفة المرجعيّة والوظيفة الانتباهيّة والوظيفة الماورائيّة[8].

ولا ينسىٰ جاكبسون أن يشيرَ إلىٰ تداخل هذه الوظائف داخل الخطاب الإنسانيّ تداخلًا يصعبُ معه تحديدُها بدقّة؛ لذلك فإنّه يقترح البحثَ عمّا سمّاه بـ(العنصر

---

(1) جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص54.
(2) نفسه، ص41-42.
(3) نفسه، ص52.
(4) نفسه، ص47.
(5) نفسه، ص48-50.
(6) نفسه، ص24.
(7) نفسه، ص27.
(8) نفسه.

المهيمن) الذي يعني عنده طغيانَ وظيفةٍ من هـذه الوظـائف على غيرهـا داخـل النـصّ طغيانًا يُمكِنُ معه تحديدُ وظيفة الخطاب بالوظيفة المهيمنة نفسها[1].

ويحـدّد حديثـه عن العنصر المهيمِن في الخطـاب ذي الوظيفـة الشّعريّة فيقـول: «ليسَتِ الوظيفة الشـعريّة هي الوظيفة الوحيدة لفنّ اللُّغَة، بل هي فقط وظيفته المُهيمِنَة والمحدَّدة، معَ أنّها لا تلعَبُ في الأنشطة اللّفظيّة الأخرى سوى دورٍ تكميليٍّ وعرَضِيّ»[2].

المحور الثالث: العنصر المهيمن في تحديد الوظيفة الشّعريّة:

لم يشرح جاكبسون في كتابه (قضايا الشّعريّة) مفهومَه للعنصر المهيمن[3] شرحًـا وافيًا، لكـنْ بالعودة إلى مقاله (العنصرُ المهيمن) الـتي نـشرَها بـشكْلٍ منفـصل، يعرّفـه بالقول: «عنصرٌ بؤريٌّ للأثر الأدبيّ يَحْكم ويحدّد العنـاصر الأخـرى»[4]. وقـد خَلُـصَ جاكبسون في هذا المقال إلى أنّ الوظيفة الجماليّة هي التي تهيمن على العمل الأدبيّ رغـم اشتراكها مع الوظائف الأخرى كالانفعاليّـة والتعبيريّـة، وقـد نظـر إلى هـذه الوظيفـة بوصفها قادرةً على الهيمنة ودمج كلّ الوظائف الأخرى بها[5].

وقد ذكَرَ جاكبسون في كتابه (قضايا الـشعرية) الأمـورَ الـتي ينـبغي للِّـسانيّ أن ينظرَ فيها ليصل إلى أنّ الوظيفة الشّعريّة هي المهيمنة على نصٍّ ما، وهي:

- **الدّراسة الصوتيّة**: فالأصوات عنـد جاكبـسون مهمّـةٌ جـدًّا في سـبيل تحديـد شعريّة النصّ، وقد حَلّل لأجل ذلك نصًّا من الشّعر السّياسيّ تحليلًا صوتيًّا كَشَف مـن

(1) جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص28.
(2) نفسه، ص31.
(3) في بعض الترجمات: الوظيفة المهيمنة، والقيمة المهيمنة.
(4) جاكبسون، رومان، القيمة المهيمنة، من كتـاب: نظريـة المـنهج الـشكلي (نـصوص الـشكلانيّين الروس)، ص81.
(5) نفسه، ص83.

خلاله أنّ الشاعر انتخبَ بعض الكلمات من أجل تعزيز الوظيفة الشّعريّة للنصّ[1]، وطرحَ مثالًا آخرَ لقدرة الأصوات على خلق الوظيفة الشّعريّة تَمثَّلَ في أنّ ممثِّلًا روسيًّا استطاع أن يقدِّم خمسين انفعالًا لعبارةٍ لغويّةٍ واحدة هي: «هذا المساء»، وهو ما يثبت أنّه يمكنُ للِّسانيّ أنْ يحدّد الانفعال بوصفه عنصرًا مهيمنًا يكشف عن حضور الوظيفة الشّعريّة حتى في عباراتٍ خارج الشّعر[2].

- **الوزن والقافية**: رأى جاكبسون أنّ عنصرَي الوزن والقافية بالِغَا الأهميّة في قبض اللّسانيّ على الوظيفة الشّعريّة للخطاب، ولم يَمِل كثيرًا إلى مخالفة الأوزان التّقليديّة لأنّه رأى أنّ مَن خالفَها لم يحظَ بالهيمنة الملائمة، ومِن ثَمَّ تظلّ قيمة الوزن التّقليديّ حاضرةً على نحوٍ أقوى، واستَشهدَ بمثالٍ طريفٍ للشكلانيّ الروسيّ أوزيب بريك قال فيه: «إنّنا لا نُتابع ولا نُحاكم المتآمرين السياسيّين إلّا حين تفشل مؤامرتُهم، أمّا في حال نجاح مؤامرتِهم، فإنّ المتآمرين أنفسَهم هم الذين ينصِّبونَ أنفسَهم متّهِمينَ وقُضاة. فلو تأصَّلَتِ الخُروقاتُ التي تُمارَس على الوزن لاكتسبت هذه الخروقات ذاتُها قوةَ القانون العروضيّ»[3]. كذلك أولى جاكبسون القافية عنايةً كبيرةً وجعلها مندرجةً تحت (التوازي) فقال: «ليسَتِ القافية سوى حالةٍ خاصّةٍ مكثّفةٍ نوعًا ما لمسألةٍ أكثرَ عمومية، بل ويمكنُنا القول إنّها حالةٌ خاصّةٌ للمسألة الأساسية للشّعر، التي هي التوازي»[4].

- **الغموض**: رغْمَ أنّ الغموضَ في حدّ ذاته ليس عنصرًا لسانيًّا، فإنّه من العناصر التي يرى جاكبسون أنّها تحدّد الوظيفة الشّعريّة في حال هيمنتها على النصّ؛ يقول: «إنّ

---

(1) انظر: جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص61.
(2) نفسه، ص29.
(3) نفسه، ص45.
(4) نفسه، ص47.

الغُموضَ خاصيّةٌ داخليّةٌ ولا تستغني عنها كلُّ رسالةٍ تركّز على ذاتها. وباختصار، فإنّه ملمَحٌ لازِمٌ للشّعر»[1]. ورغم ذلك، فإنّ ما يعزّز الغموض عند جاكبسون هو الأصوات والتراكيب والعروض والبنى النّحويّة[2]، فكونُ الغموض عنصرًا داخليًّا في النصّ يعني أنّه في حاجةٍ لعناصرَ لسانيّةٍ خارجيّةٍ تحدّده وتقبض عليه.

نموذجُ تطبيق: تحليل اللازمة (أبدًا Nevermore) في قصيدةِ الغراب لإدغار ألن بو:

في كتابه الموسوم بـ(محاضراتٌ في الصوت والمعنى) يقفُ جاكبسون على نماذجَ متعددةٍ يَدرس من خلالِها أثرَ الصّوت (وهو معطًى لسانيّ) في تعزيز المعاني الشّعريّة. وضمن هذه النّماذج يطرحُ قصيدةَ (الغراب) لإدغار ألن بو، تحت موضع التّحليل مرتكزًا على ما فيها من ظواهرَ صوتيّةٍ تعزّز معانيها.

ترتكزُ بؤرة التحليل عند جاكبسون في هذه القصيدة على اللازمة الشّعريّة التي يصفُها بـ«الكئيبة»، ويكرّرها إدغار ألن بو، وهي تتمثّل في كلمة (أبدًا Nevermore)، ويَقتبس في بداية التحليل ما قاله بو نفسه عن هذه اللازمة: «ما تنطقُه هو مضمونُها فحسب»[3] ليخلصَ إلى أنّ اللازمة تعلن من البداية «نفيًا للمستقبل ونفيًا إلى الأبد»[4].

ثمّ يحلّل جاكبسون اللازمة فيجدُ أنّها تتألّف من سبعةِ أصواتٍ ومنها الصوت الساكن في نهايتها، ويرى أنّه الأكثر قابليةً على التّكرار، ومن ثَمّ فهو يرتبط بالمستقبل والأبديّة عبر خاصيّة التكرار تلك[5]. ويرى أنّه رغمَ تكرار الكلمة نفسِها تستطيع أن تفيضَ بمجموعةٍ من المعاني المختلفة بناءً على «سياق نطقها أو الموقف

(1) انظر: جاكبسون، رومان، قضايا الشعريّة، ص51.
(2) نفسه، ص52.
(3) جاكبسون، رومان، محاضرات في الصوت والمعنى، ص29.
(4) نفسه، ص29.
(5) نفسه.

السّرديّ»[1]، ورأىٰ أنّ سياق النّطق يختلف من مقطعٍ لآخرَ عبر ثلاثةِ أنواعٍ من النّطق الصّوتيّ، هي: التّرخيم والنبر والإيقاع[2]. أمّا المعاني التي يرصدها جاكبسون لهذه اللّازمة فهي:

- **سياق المحاورة**: فاللازمة جاءت لتحاور أو تحاكي صوتًا من الطبيعةِ هو صوت الغراب الذي يرتبطُ نعيقُهُ ارتباطًا صوتيًّا بنطقِ لفظةِ (أبـدًا Nevermore)، ومن هنا فقد جاءت وظيفةُ اللازمة في المقطع الأول الذي أشار فيه بو إلىٰ الغراب وظيفةً سياقيّةً تتعلّق بمحاكاةِ صوتِ الغراب الذي تقوم عليه مقاطعُ القصيدة.

- **السّياق الرّمزيّ**: وهنا تَظهر وظيفةٌ أخرىٰ للّازمةِ هي جعلُ اللّفظةِ (أبـدًا Nevermore) رمزًا لزائرِ اللّيلِ المتمثّل في الغراب؛ وهنا تتحول الكلمة من سياقها الصّرفيّ الذي هو ظرفٌ إلىٰ سياقٍ اسميّ؛ إذ تصير رديفةً للغراب ودالّةً عليه ورامزةً إليه.

- **القيمة العاطفية**: إنّ تنويعَ طُرُقِ التلفّظ للّازمة - كما أسلف جاكبسون - يسهم في شحنِها وشحن القصيدة بقيمةٍ عاطفيّةٍ عاليةٍ مصدرُها التّكرارُ غيرُ الرّتيب.

وتَظهر استفادة جاكبسون من اللسانيّات في هذا التحليل عبر اعتماده في التّحليل علىٰ ما نظّر إليه في موضوع العنصر المهيمن؛ فقد قصَرَ تحليلَه علىٰ دراسةِ اللازمة البنائيّة للنصّ وجعلها محورًا له بحكمِ هيمنتها عليه، ثمّ يَظهر أثر اللّسانيات في تركيزه علىٰ توصيف المقاطع الصوتية للازمة من جهة، وتوصله إلىٰ الوظائف التي تحملها هذه المقاطع، مع تركيزه علىٰ أثر التلوين الصوتيّ وإمكانات النبر والترخيم والإيقاع في شحن اللازمة والقصيدة بمعانٍ إضافيّةٍ تعزّز شعريّتها، وهي معانٍ اكتسبتْها اكتسابًا مباشرًا من القيمة الصوتيّة.

*

(1) جاكبسون، رومان، محاضرات في الصوت والمعنىٰ، ص29.
(2) نفسه، ص30.

الخاتمة

بعدَ تناولِ هذا البحثِ أثرَ اللّسانيّات في مفهوم الشّعريّة متّخذًا من رومان جاكبسون نموذجًا للدّراسة، ووُقوفِه على مفهوم اللّسانيّات ونشأتها وإرثِ اللغويّ دي سوسير في إرساء مفاهيمها، وتناولِ العلاقةِ بين اللّسانيات والشّعريّة بالوقوف على أثر دي سوسير في نشأة البنيويّة بوصفها منهجًا يروم وصف الظواهر وصفًا داخليًّا، وأثرِه في أعمال روّاد المدرسة الشّكلانيّة الرّوسية، وتوصيفِ شعريّةِ جاكبسون وعلاقتها باللّسانيّات بتناول وعيه النظريّ للعلاقة القائمة بين المجالين وبتوصيف نظريتيْهِ في الاتصال والعنصر المهيمن، والوقوفِ على نموذجٍ تطبيقٍ هو تحليل جاكبسون للازمة (أبدًا Nevermore) في قصيدةِ الغراب لإدغار ألن بو = توصَّل إلى مجموعةٍ من النتائج على النحو الآتي:

- إنّ اللّسانيّات التي رَسّخ مفاهيمها دي سوسير أثّرتْ تأثيرًا بالغًا في صعود الدّراسات الشّعريّة بعده رغم أنّه لم يقدّم أيّ دراسةٍ خاصّةٍ للشعر والأدب؛ وذلك عبر تلقّف نظريّته وتطبيقها على الأدب فيما عُرِفَ لاحقًا بالبنيويّة، وفيما تعزّز في جهود مدرسة الشكلانيّين الروس الذين كان جاكبسون على رأسهم.

- بدا أثر اللّسانيّات في دراسات الشّعريّة عمومًا في اعتماد الشّعريّة على العلاقات الدّلاليّة (الدّالّ والمدلول) وتركيزها على الوصف التزامنيّ للّغة واهتمامها بالعناصر البنيويّة التي كانت الفونولوجيا (الأصوات) على رأسها.

- طغى التّحليلُ اللّسانيُّ على دراساتِ جاكبسون طغيانًا كبيرًا على المستويْنِ النظريِّ والتّطبيقيّ؛ فقدّم على المستوى التّظريّ نظريّتين كان لهما أثرٌ كبيرٌ في الدّراسات الشعريّة هما: نظرية الاتصال ونظرية العنصر المهيمن. وكلتاهما معتمدةٌ على معطياتٍ لسانيّةٍ بحتة. أما المستوى التّطبيقيّ فقد ظهر من خلال تركيزه الكبير على دور الصّوت في كشفِ الوظيفة الشعرية وتعزيز المعنى في النصّ.

- أبدىٰ جاكبسون وعيًا نظريًّا عاليًا بالعلاقة التي تربط اللّسانيّات بالشّعريّة، وقد توصّل إلىٰ أنّ العلاقة بينهما علاقةُ جزءٍ بكلّ؛ فاللّسانيّات بمنزلة المنبع الذي نبعتْ عنه دراساتُ الشعريّة واغترفت منه، وقد تبدّىٰ هذا الاغتراف في تطبيقاتِ جاكبسون نفسِه التي أولَتِ الأصواتَ والأوزان والقوافي عنايةً كبيرة.

- جَعل جاكبسون لمكوّناتِ نصوص الشّعر الدّاخليّةِ مراجعَ لسانيّة؛ فقد رأىٰ أنّ ظاهرة الغموض مثلًا -وإنْ كانت جزءًا رئيسًا ومهيمنًا في النصّ الشعريّ- يُستدَلّ عليها بالعناصر الخارجية الشكليّة المتمثّلة بالأصوات والبنىٰ الصرفيّة والنحويّة والتركيبيّة.

*

المصادر والمراجع

- إبراهيم الخطيب، (مترجم)، نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشّكلانيّين الرّوس)، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1982م.
- أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمٰن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1973م.
- بوريس إيخَنباوم، نظرية المنهج الشكليّ، من كتاب: نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيين الروس)، ترجمة: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1982م.
- تاديه جان إيف، اللسانيات والأدب، ترجمة: سعيد بو عيطة، بحْث، مجلّة علامات، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ج78، 2014م.
- تزفيتان تودورف، الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط2، 1990م.
- تيري إيغلتون، نظرية الأدب، ترجمة: ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995م.
- جان بياجيه، البنيوية، ترجمة: عارف منيمنه وبشير أولبري، منشورات عويدات، بيروت – باريس، 1985م.
- جان كوهين، بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986م.
- جميل حمداوي، النظرية الشكلانية في الأدب والفن، دار الريف، تطوان، 2020م.
- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمناهج والمفاهيم)، المركز الثقافي العربي، ط1، 1994م.
- دانييل مانيس، علم اللغة، ترجمة: سهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر، بحْث، مجلّة الموقف الأدبيّ، ع135– 136، 1982م.
- دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة: عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1987م.
- روبرت تشولز، البنيوية في الأدب، ترجمة: حنا عبود، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، ط7، 1977م.
- روبنز، ر.هـ، موجز في تاريخ علم اللغة، ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع227، 1997م.

- رومان جاكبسون، قضايا الشعريّة، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنـون، دار توبقـال للنـشر، الدار البيضاء، 1988م.
- ـــــــــــــــ، القيمة المهيمنة، من كتاب: نظرية المنهج الشكلي (نصوص الشكلانيّين الروس)، ترجمة: إبراهيم الخطيب، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1982م.
- ـــــــــــــــ، محاضرات في الصوت والمعنى، ترجمة: حسن ناظم وعلي صـالح، المركـز الثقـافي العربي، 1994م.
- عز الدين المجذوب، ثلاث ترجمات لكتاب دي سوسير، بحْث، حوليات الجامعـة التونـسية، ع26، 1987م.
- المنظمة العربية للتربيـة والثقافـة والعـلوم (نـاشر)، المعجـم الموحّـد لمـصطلحات اللّـسانيّات (إنجليزي - فرنسي - عربي)، سلسلة المعاجم الموحدة، رقم: 1، 2002م.

● ○ ●